فوائد الحروب

قرأنا للجنرال السر رجينلد هارت مقالة في مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية موضوعها الدفاع عن الحرب ضمّنها كثيراً من الحقائق العلمية والمسائل الخلافية فاقتطفنا منها ما يأتي

يقول قوم انهُ مهما كان تاريخ الانسان في العصور التي مرّت قبل ان يبلغ فيها ما بلغهُ من الارتقاء بواسطة ناموس تنازع البقاء وبقاء الاصلح فان العمران الحديث قد حرّرهُ من الخضوع لهذا الناموس الطبيعي الصارم وسيتوالى ارتقاؤهُ عاماً بعد عام وقرناً بعد آخر من غير ان يلجأ الى امتشاق الحسام . فالناس مثل هؤلاء تقول لهم كما قال كرومول لقوم من الغلاة في الدين « اتوسل اليكم ايها السادة ان تتلطفوا معي بانكم قد تكونون مخطئين »

لما أُرسل نبوليون الى جزيرة القديسة هيلانة زعم قوم ان زمان الحروب انقضى وان الناس سيتمتعون بسلام دائم ابد الدهر ولكن خاب فألهم . كانت اوربا منهوكة من الحروب فسكنت زمناً ريثما استردّت قوتها ثم عادت الى القتال كما تهجع البراكين بعد ثورانها ثم تهيج ثانية . والآن لا يزال جو السياسة كثيف الغيوم

نعم ان الناس دعاهم حب البقاء الى ان تألفوا جماعات فتكونت منهم الامم والممالك وترى الآن شعب المملكة الواحدة لا يحارب بعضهُ بعضاً بل يُفصّل ما يقع بين افرادهِ من الخصومات بواسطة المحاكم ولكن الممالك المختلفة لم تبلغ هذه الدرجة في فصل ما يقع بينها من الخصومات ولا تدلُّ الدلائل على انها واثقة ان كل ما يقع بينها يفصل فيهِ بالتحكيم بل هي تأنف دواماً للاحتكام الى السيف اذا لم تفلح الوسائل السلمية . والتنازع بينها حقيقي لا شبهة فيهِ وهو طبيعي وسيزيد حدةً مع الزمن كما سيجيء

اذا اراد الانسان ان يغالب قوى الطبيعة ويتغلّب عليها وجب عليهِ ان لا يقصر نظرهُ على الحاضر بل ينظر الى المستقبل ايضاً . في ايطاليا نهر كان اذا فاض يملأ واديهُ ويطغى على البلاد المجاورة فبنى لهُ المهندسون جسرين (سدين) على جانبيهِ لكي يمنعوا طغيانهُ فجعلت الاتربة التي يجرفها ترسب في واديهِ الى ان امتلأ فرفعوا جسريهِ رويداً رويداً حتى صار مجراهُ اعلى من الارض المجاورة وصار الاعتناء بهما كبير النفقة واذا انقطع احدهما الآن نتج عنهُ خراب عام نتيجة اغفال النظر الى المستقبل

ونحن اهتممنا بصحة السكان في بلاد الهند فمنعنا موت مئات الالوف واهتممنا ايضاً بمنع المجاعات فدفعنا الموت عن ملايين . وابطلنا وأد الاطفال والحروب الداخلية . ولكن الا

يُحتمل انا اعددنا بلاد الهند بذلك لشر مستطير اكبر من الشرور التي دفعناها عنها . فان سكانها يزيدون الآن زيادة فاحشة فاذا اصاب البلاد قحط شديد عجزنا عن دفعه فيهلك من السكان في سنة اضعاف ما نجينا منهم في كل السنوات الماضية . وهذا لا يوجب علينا ان نمتنع عن الاعتناء بصحة السكان ودفع المجاعات عنهم ولكن اعتناءنا هذا لا يقاوم نواميس الطبيعة ولا يتغلب عليها دائماً . والطبيعة تجري مجراها من غير ان تعبأ بنا او بما نشعر به من الألم . وشأنها معنا شأنها مع سائر طوائف الحيوان التي تتنازع البقاء على وجه البسيطة

يحاول الانسان ان يلجم الطبيعة كما يلجم الفرس وقد نجح في امور كثيرة . ولكنهُ كثيراً ما يخطئ فيحسب انهُ تغلب على الطبيعة وابطل فعلها وهو لم يفعل شيئاً من ذلك

ونحن في دفعنا الحروب لنتخلص من بلاياها نفصل كثيراً من خصوماتنا بالمسالمة ويظهر كأننا نجبنا الحرب وابطلناها ونحن في الحقيقة اجّلناها تأجيلاً لانها تبقى خامدة تحت الرماد الى ان تشبّ ثانية وتكون اوسع نطاقاً واشد ويلاً من كل ما سبقها . فانهُ يقتل الآن في ساعة ما كان يقتل في يوم . وكانت الامم تستأجر المحاربين ليحاربوا عنها فصارت تتقلد السلاح كلها وتقوم للقتال

وقد تبطل الحروب من بين ممالك اوربا في مستقبل الازمان كما بطلت من بين طوائف كل مملكة منها على حدة ولكن هذه الممالك كلها ستتحد حينئذٍ لدفع الشعوب الاخرى التي تتهددها واذا تجمعت قواها ووجدت لها مصرفاً صارت كسيل العرم لما انبثق فلا تبقي ولا تذر

وحياة الامم لا تقتصر على ما بين افرادها من تنازع البقاء بل تشمل ما بين امة وامة من تنازع البقاء وتنازع العظمة والمجد . ولا يغلب في هذا التنازع الاّ الامة المتحدة العناصر المحكمة الاتصال المستكملة قواها الجسدية وغيرتها الوطنية التي لا يصرفها تنازعها الداخلي عن تنازع البقاء الخارجي . وليس في التاريخ مثل واحد لامة نشأت وطال اجلها ورجالها يستخفون من الحرب وحب الوطن

ان تنازع البقاء وبقاء الاصلح امران بسيطان اذا نظر اليهما من حيث الانتخاب الطبيعي ولكن اذا اضيفت اعمال الانسان الى افعال الطبيعة لم تبقَ الامور على بساطتها . وما من احد يعلم متى يأتي الاصلح ولا ما هي شروط مجيئهِ ولا كيف يكون الاصلح اصلح من غيره . اللبقاء أبالحرب ام بالحيلة ام بالسبق

كان اسلافنا في اول عهدهم عزلاً من السلاح فدعاهم تنازع البقاء بينهم وبين الحيوانات الى استنباط الاسلحة فاخضعوا بها الحيوان ثم تنازعوا بها البقاء فانقرض ضعيفهم من امام قويهم وعاش القوي واخلف نسلاً وهكذا بلغ الانسان ما بلغ من القوة الجسدية والعقلية بواسطة تنازع البقاء ولا يزال هذا التنازع جارياً الآن على اساليب مختلفة وهو لازم للامم كما هو لازم للافراد

ولعلّ التنازع الطبيعي اصلح لنوع الانسان من التنازع الصناعي اي ان يترك الامر الى الطبيعة لتبقي الصالح وتفني غيره ولا يعتمد على الوسائل الصناعية التي يختار بها الانسان من يشاء للبقاء ويهلك من لا يشاء لانهُ اذا ترك الامر لهُ فعل كما فعل بسقراط وغليليو اللذين شذا عن اهل عصريهما . والحرب من جملة الوسائل الطبيعية لبقاء الاصلح ومن المقرر ان الامم الحربية ارقى من غيرها مع كثرة من يقتل من ابنائها

اننا نعرف بعض الشيء عن تاريخ الانسان في الماضي ولكننا لا نعرف شيئاً عن مصيره في المستقبل . يولد كثيرون وهم اهل للبقاء والارتقاء ولكن وسائل العمران الصناعية تحرمهم من المعيشة والتقدم ويولد كثيرون ضعاف الاجسام والعقول ولكن يترك لهم والدوهم من الاموال ما يقدرهم على المعيشة واخلاف النسل . وهذا الامر شائع في كل البلدان ولكن ابعدها عن العمران اقلها وسائل لحفظ الضعيف الدميم واكثرها اسباباً لحفظ القوي النشيط

وقد ظن البعض انهُ يمكن انتخاب اصلح الناس للبقاء بواسطة الامتحان التفاضلي اي ان يمتحن الشبان لكل عمل من اعمال الحياة ويختار ابرعهم لهُ ويهمل الباقون فيتناسل الاولون وينقطع نسل الاخرين على طول الزمن . ولكن السر فرنسيس غلتون ابان ان عيوب الامتحان ظاهرة لان السبق فيهِ يكون للشاب القوي الذاكرة السريع الخاطر وليس فيهِ مقياس للصحة والاخلاق . ثم ان عقل الشاب يتغيّر مع الزمن فتظهر القوى الكامنة فيهِ الموروثة من اسلافهِ بعد ان يتقدّم في السن . والامتحان يُنظَر فيهِ الى الحاضر فقط لا الى المستقبل مع ان المهم هو حالة المرء في المستقبل بعد ان يصير رجلاً وكهلاً ويمكن الاستدلال عليها بنوع عام من تاريخ اسلافهِ

وز بدة المقال ان الناس الذين يودون ان يبقوا احياء ويتقدموا يجب عليهم ان يجاهدوا لكي يمتازوا على اقرانهم . وما يقال عن الافراد يقال عن الامم والشعوب . واذا كان للمرء

كفافهُ من طعام وشراب لم يقنع بهما بل طلب المزيد واذا قنع عاد الى الحالة البربرية حيث يقوم النساء بكل الاعمال اللازمة للمعيشة ويعيش الرجال بالكسل والخمول

لما التأم مؤتمر السلم في بوليو الماضي سنة ١٩١٠ قال رئيسهُ كلاماً مفادهُ « ان الميل الى الحرب في فطرة الانسان فاذا لم نحوّل فطرتهُ حتى يصير يكره الحرب كما يكرهُ البطنة والسكر والاغتيال وما اشبه فلا فائدة من جمعيات السلم لان هذا الميل الفطري او الهوى شديد التأثير فيتغلب على ارشاد العقل اذا سمع صوت ابواق الحرب »

فاذا كان الامر كذلك باقرار رئيس مؤتمر السلم فمقاومة هذا الهوى او الميل النفسي الموروث ضرب من العبث . واكثر الحروب ناتج عن هذا الميل كما ترى في حرب فرنسا وبروسيا سنة ١٨٧٠ وفي اكثر الحروب الدينية

قال السر راي لنكستر العالم الطبيعي المشهور « اني انا نفسي من اهل الهوى ولكن هواي استنكار كل المشاق التي ينوء تحتها نوع الانسان وهو في غنىً عنها — المشاق التي القى الانسان نفسهُ فيها بمقاومته ناموس الطبيعة القاضي بافتراض من لا يصلح للبقاء من امام من يصلح لهُ »

وللطبيعة ناموس مشهور تمنع بهِ كل نوع من النبات والحيوان من ان يملأ الارض وتمنع الانسان كما تمنع الحيوان والا ملأها ولم يترك فيها موقف قدم لحيوان آخر . قال السر راي لنكستر

« ان كل نوع من الاحياء يلد اكثر مما يمكن ان يبلغ اشدهُ من ولدهِ لان الطعام اللازم لهُ محدود ولقتات بهِ احياء اخرى فالحارة تلد خمسة ملايين فلا يعيش منها الا حارة واحدة ولس عليها اكثر انواع الحيوان والنبات . وسواء وَلد الحي كثيراً او قليلاً لا يعيش من نسلهِ اكثر من اثنين ليقوما مقام والديهما ولا شواذ لهذه القاعدة اي قاعدة كثرة الولد حتى لو سلم نسل حيوان واحد او نبات واحد لملأ الارض ولم يبق فيها مكاناً لغيرهِ . الفيل اقل الحيوانات ولداً وابطأها ولادة يبتدئ بلد وعمرهُ ثلاثون سنة ويموت وعمرهُ مئة ولا تلد الفيلة في كل هذه المدة اكثر من ستة فاذا عاش نسل زوج واحد من الافيال وتوالد مدة ٧٥٠ سنة بلغ تسعة عشر مليوناً . فلا شبهة في كثرة التوالد وفي انها تفوق ما يمكن ان يعيش منها وفي انهُ يجب ان يهلك الوف منها لكي يعيش واحد »

هذا ما قالهُ السر راي لنكستر وقد تبين ان بعض المحار الاميركي والبرتقالي تبيض

الواحدة منهُ تسعة ملايين بيضة كل فصل وخمسين مليون بيضة مدة عمرها ومع ذلك لا يسلم منها الاَّ اثنان في المتوسط

وهذا الاسراف كثير في كل انواع الحيوان والنبات وهو سنَّة طبيعية والانسان لا يشذُّ عنها والحروب من جملة الاسباب التي تمنع زيادة النسل ولكنها ليست اقواها فقد ثبت بالاحصاء ان نمو الشعوب يقل وقت السلم اكثر مما يقل وقت الحرب فلندن وباريس وبرلين هي امهات مدن العمران الاوربي والسلم ضارب اطنابهُ فيها ولكن مواليدها تقلُّ رويداً رويداً مع ان عدد الذين يتزوجون لم يقل الاَّ في لندن ولم يقل منها على نسبة قلة المواليد وبرلين احدث هذه المدن الثلاث واكثرها انتظاماً بل هي مثال ما يمكن ان تبلغهُ المدن في انتظامها المبني على الاصول العلمية ومع ذلك هبط عدد المواليد فيها مضاعف ما هبطهُ في لندن وباريس . ولا شبهة ان رفاهة العيش تؤول الى قلة النسل

الحرب تقتل الناس وهي واسطة فعلية يمكن منعها بالوسائل الفعلية ولكن السلم اقتل من الحرب وهو يفعل فعلهُ بوسائل ادبية يتعذَّر منعها بالوسائل الفعلية ولقد علم من قديم الزمان ان المدن الكبيرة تأكل سكانها والانسان يحارب الطبيعة ويتغلَّب عليها من بعض الوجوه وهي تتغلب عليهِ من اخرى وتقرضهُ . ثم ان الالتجاء الى التحكيم لا يمنع الحروب دائماً لاسيما وان الدول لا تقبل التحكيم في المسائل الجوهرية التي تتعلق بوجودها . واذا عرضت الخصومات للتحكيم فليس اصعب من الفصل فيها وانصاف الحق من المحتوى . واذا كان لا بدَّ من الحرب فالاستعداد لها امنع منها لانهُ لا شيء امنع للعدوان من التأهب لمقاومة العدو . والخوف من الحرب يمنع الحرب وهو الذي وقى اوربا من الحروب منذ اربعين سنة الى الآن

هذه خلاصة المقالة التي كتبها الجنرال هارت وقد لخصناها وتصرفنا فيها تصرفاً لا يخرج ما ذكرناهُ عن مرادهِ . واكبر اعتراض لنا عليها ان الحروب لا تثار لاسترداد حق مهضوم ولا لمساعدة الطبيعة على بقاء الاصلح ولكنها الاهواء مثل حب السيادة وحب الكسب وحب المجد تدفع اولياء الامور وقواد الجيوش واصحاب المصالح الى انشاء البوارج واعداد المِيَر وسوق الجنود الى ميادين القتال . ومتى علم ذلك ورسخ في الاذهان صار الناس يحتقرون رجال الحرب كما يحتقرون قطاع الطرق . والانسان غير مكلف ان يثير الحرب لكي يقتل من لا يستحق البقاء من نوع الانسان او من نقلُ وسائل المعيشة ببقائهِ لا سيما وان الذين يقتلون بها هم النقاية لا النفاية